

شَرُّ الْبَلِيَّةِ مَا يَضْحَكُ

أَمَرَ الْقَائِدُ الْعَسْكَرِيُّ جُنُودَهُ بِالرَّحِيلِ الْفَوْرِيِّ عَنْ ثِكَّتِهِمُ
الْمَتَوَضِّعَةِ فِي كُرُومِ الزَّيْتُونِ شَرْقِي الْقَرْيَةِ الْعَالِيَةِ سَكُوفِيَا ، فَالْعَدُوُّ
يَنْوِي قَصْفَ الثَّكْنَةِ بِمَا فِيهَا مِنْ عَسَاكِرٍ وَمُدْفَعِيَةٍ ، وَتَحْتَ جَنْحِ
الظَّلَامِ تَقَاطَرَتِ الْآلِيَاتُ تَحْمِلُ الْجُنُودَ وَمُعْدَاتِهِمْ وَتَسْلُلُوا دُونَ
ضَجَّةٍ وَلَا أَنْوَارٍ كَاشِفَةٍ حَتَّى لَا تَنْكَشِفَ خَطَّتِهِمْ ، وَلَمَّا وَصَلُوا
الْمَكَانَ الْمَخْصَصَ فِي مَنْخَفَضٍ تَسْتُرُهُ هَضَابٌ مَرْتَفَعٌ وَشَجَرٌ كِينَا
عَالِيَةً وَتَمَرَّكُزُوا هُنَاكَ ، وَقَدْ سَتَرُوا الْمُدْفَعَ بِأَغْطِيَةٍ تُمَوِّهُهَا
وَحَفَرُوا خَنَادِقَ وَدَشَمَ لِلتَّمَرَّكُزِ تَحْسَباً مِنْ طَيْرَانٍ يَصَادِفُهُمْ فِي
النَّهَارِ .

وَلَمَّا نَفَّذَ الْقَائِدُ وَعَسْكَرُهُ الْأَوَامِرَ بِحَذَافِيرِهَا وَتَرَكَ ثِكَّتَهُ الَّتِي
هَيَّأَتْهَا السَّرِيَّةُ عَلَى مَدَى سَنِينَ وَحَصَّنَتْهَا وَأَقَامَتْ فِيهَا الْمَلَاجِئَ
وَسَوَّرَتْهَا بِالْأَسْلَاحِ الشَّائِكَةِ وَالْخَنَادِقِ ؛ تَجَنَّباً مِنْ وَقُوعِ خَسَائِرِ
بَيْنِ الْجُنُودِ مِنَ الْغَارَةِ الْمُحْتَمَلَةِ كَمَا عَلِمُوا .

رَكَّزَ السَّدَنَةُ الْمُدْفَعَ فِي مَرَابِضِهَا الْجَدِيدَةِ وَحَسَبَ خَبَرَاتِهِمْ
الْمُتْرَاكِمَةَ فَقَدْ صَوَّبُوهَا إِلَى أَهْدَافِ الْأَعْدَاءِ ، وَأَعْطَوْهَا زَوَايَا

وإحداثيات حَسَبَها مُسَبِّقاً في المناورات ، واستعدوا لملاقاة الطائرات وإطلاق النيران عليها وعلى مدافع الأعداء ، التي تعتدي على خطوط الجبهة السورية والقرى الآمنة في الطرف الشرقي للبحيرة باستمرار ، ولطالما أوقعوا إصابات وخسائر بهؤلاء المدنيين كقرى الكرسي والدوكا وسكوفيا ، وشكوم والحة وغيرها .

كلَّف القائد أحد الجنود بحراسة الشكنة المُخَلَّات وأمره بمراقبة مداخلها ومخارجها وأجوائها وإعلامه عن كل شيء بواسطة الهاتف الحربي .

وفي اليوم التالي كان هذا الجندي يرقب السماء ، وهو يعلم أن الغارة الصهيونية قد تحدث في أي وقت ، فالغدر من سماتهم فهم يأتون بوقت لا تتوقَّعه .

وعندما انتصف النهار ظهرت القاذفات العملاقة من فوق سطح الماء بالبحيرة ، تتهاذى وهي تحمل في بطونها الموت الرّام ومجرمين قتلة يسعدون بهلاك غيرهم وآلام الآخرين ، ولما وصلت فوق القرية السماء العالية الآمنة بسكانها وأهلها المؤمنين ، رَمَتْ عليهم أطنانا من المتفجرات وصارت الأرض والحجارة تشتعل لهباً وتتفجّر صواعق فتقتل كل حياة على أرضها وفي بيوتها وكانت المعجزة التي أودت بحياة الكثيرين من الشيوخ والأطفال والنساء والشباب .

ولما رأى هذا الحارس هجوم الطائرات وما أحدثت في القرية من دمارٍ وقَتْلٍ ، أسرع يدخل الملجأ القريب من محرسه وليخبر قائده بما يَحْدُثُ ، فإذا بالصواريخ تنزلُ على ثكنته وفوق ملجئه الذي لاذَ في جَوْفِهِ ، فكانت الانفجارات وكأنها القيامةُ قد قامت والأرض تهتَزُّ ، والحجارة والتراب تنزل عليه وقد امتلأ المكان بالدخان والغبار وهو يأوي إلى زاوية في هذا المخبأ ، وما أدهشه وأخافه أكثر هو أفعى ضخمة دخلت المكان وراحت تجوب فيه باحثةً عن جُحْرِ يُخفيها وهي مذعورة من شدة الضربة ، وهكذا راح هو الآخر يجري أمامها خوفاً منها وكانت لحظات رهيبة ، فلا يستطيع الهرب خارجاً؛ لأن الطائرات العدوّة مازالت تلقي برصاصها على كل ما يتحرك ، وصار بين نارين نازٍ في السماء وأخرى تحت الأرض ، ولم يكن حال الأفعى بأحسن منه رهبة وخوفاً.

ولما انتهت الغارةُ وهدأ روعُ الجندي إلا من خطر هذه المُتَطَفِّلة التي وجدها هادئةً وشرّها أهونٌ عليه من تُجارِ الموت الصهاينة ، وهم يتلذذون بقتل الناس الآمنين . إنها عقيدتهم التي تربّوا عليها ، ولقّنهم إياها غلاة الصهاينة المجرمون .

ونظر إليها فوجدها قد هدأت وهي تنظرُ إليه في ريبةٍ ! فأشار لها ، أن اذهبي في حال سبيلك ، وكما سلّمني الله من هذه المِحْنَةِ ! فَلَكَ السَّلَامَةُ : فخذِي فرصتك بالنجاة ولا تخافي مني ، ما دمت لا تؤذي أحداً ، ولن أدعَ أحداً يؤذيكَ ! فانسلّت من باب

الملجأ خارجةً تبحث عن جُحرٍ يُؤويها ، وراح هو يتفقدُ الأضرار التي حدثت جرّاء الغارة ، وصار يعطي تقريراً مفصلاً عبّر الهاتف لقاءه ، إلا من حادثة وقصة الأفعى التي تركها ليرويها بينه وبين أصحابه وأهله وهو يتندّر ويضحك ويضحكون ، وقولهم: «شَرُّ البليّة ما يُضحكُ» .

* * *